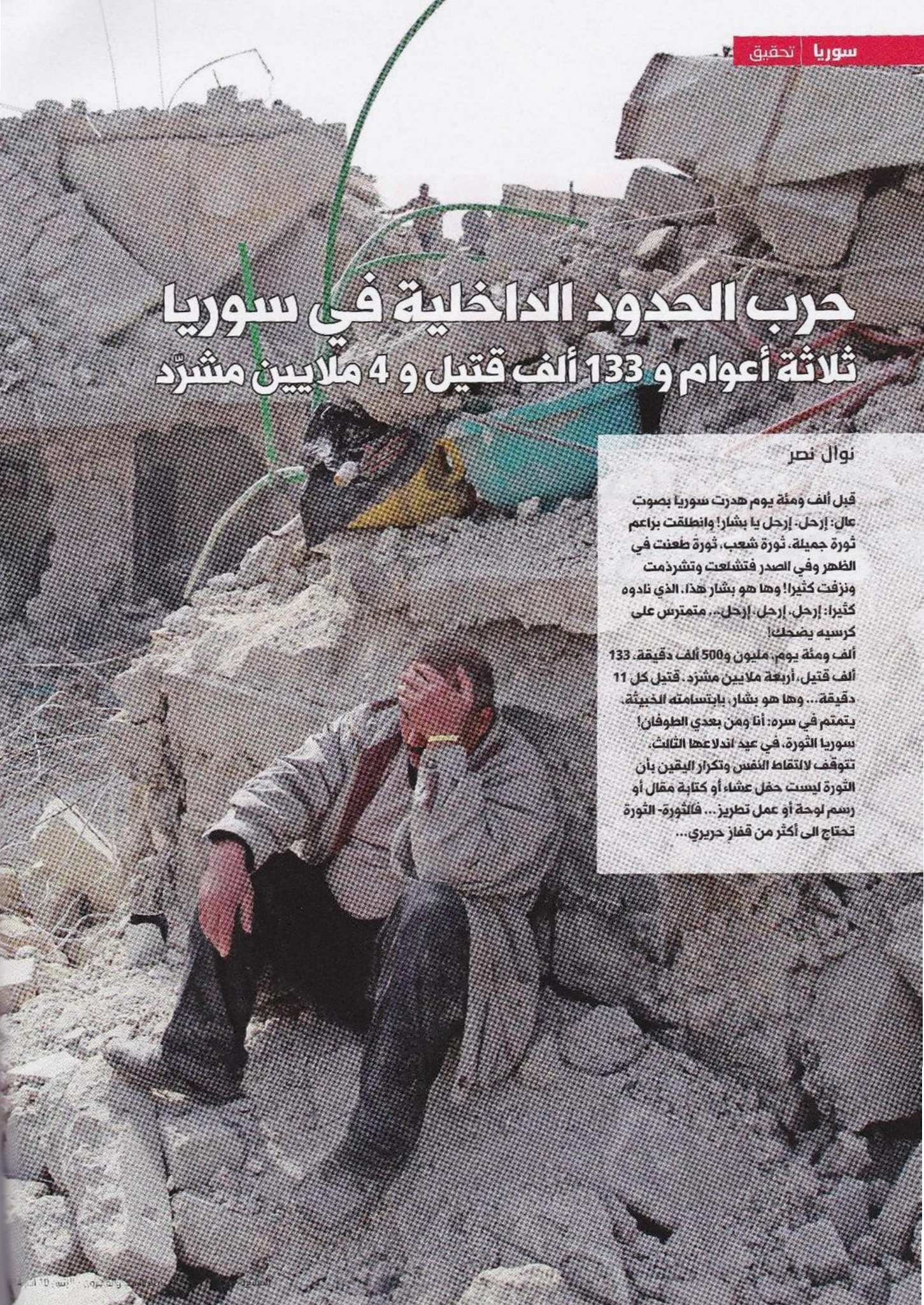

حرب الحدود الداخلية في سوريا

ثلاثة أعوام و 133 ألف قتيل و 4 ملايين مشرّد

نوال نصر

قبل ألف ومئة يوم هدرت سوريا بصوت عالٍ: إرحل. إرحل يا بشار! وانطلقت براعم ثورة جميلة، ثورة شعب، ثورة طعنت في الظهر وفي الصدر فتشلعت وتشردمت ونزفت كثيرا! وها هو بشار هذا، الذي نادوه كثيرا: إرحل. إرحل. إرحل.. متمترس على كرسيه يضحك!

ألف ومئة يوم، مليون و500 ألف دقيقة، 133 ألف قتيل، أربعة ملايين مشرد، قتيل كل 11 دقيقة... وها هو بشار، بابتسامته الخبيثة، يتمتم في سره: أنا ومن بعدي الطوفان!

سوريا الثورة، في عيد اندلاعها الثالث، تتوقف لالتقاط النفس وتكرار اليقين بأن الثورة ليست حفل عشاء أو كتابة مقال أو رسم لوحة أو عمل تطريز... فالثورة- الثورة تحتاج الى أكثر من قفاز حريري...

أحد عارفي بشار الأسد، ممن يأبون الكذب على أنفسهم، نظر مليا حوله وقرأ في الثورة خلاصة: حكم نظام الأسد انتهى حتى لو خال بشار أنه صامد في السلطة! نعم، هذا ما خاله بشار الذي صعق حين بدأت انتفاضات العالم العربي تتسرب الى بلاده في آذار 2011، وراح يلعب لعبة الأقليات في بلد 75 في المئة منه من المسلمين السنة وعشرة في المئة مسيحيين وثلاثة في المئة دروز، أما نظامه، نظام البلد، فمشبع بالعلويين. وها هو محمد، الشاب الكردي، الذي شارك والده بانتفاضتين ضد النظام قمعتا في عامي 1982 و2004 يتباهى أن النظام الأسدي سمح للأكراد باستخدام لغتهم الكردية علنيا بعد أن كان «يقصف عمر» من يتجرأ ويتكلم كردي في الشارع! لعب إذا النظام ورقة الأقليات ببراعة على مرّ السنين وها هو يلعبها اليوم مع المسيحيين عبر «داعش» و«النصرة». وجود «داعش» يُفترض أن يجعل الكثيرين طبعا يعيدون النظر بأشياء كثيرة لكن: من صنع «داعش»؟ والسؤال برسم المطبلين والمزمرين دفاعا عن حقوق المسيحيينَ...

لمن نسي، انطلقت الثورة السورية من درعا، البلدة الواقعة جنوب غربي سوريا، قرب الحدود مع الأردن، حين قرر في الأسبوع الأول من آذار 2011 عشرة تلاميذ، أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة، أن يتسلوا ويضحكوا فكتبوا على جدار مدرسة درعا شعارا مستوحى من الثورة المصرية: ليسقط النظام! فأوقفتهم السلطات المحلية واستجوبتهم في دمشق وعذبتهم. وفي 15 آذار سار مئات من أهاليهم الى الجامع الأموي في وسط درعا وطالبوا بإصلاح نظام الحكم المتسلط. بشار الأسد صُعق. ثمة من يرفع رأسه في البلد الذي عوّده نظامه، في أربعين عاما، على الخنوع. إنها الثورة. إنها الشرارة. انه الربيع السوري...

أحداث كثيرة ألفت الثورة في ألف ومئة يوم والسؤال: ما هو التصوّر للمرحلة المقبلة؟ تُكمل الثورة باللي بقيوا؟ يُكمل بشار أسلوب الضحك على جثث القتلى؟

قبل عامين وسبعة أشهر، يوم كانت الثورة في عزها، كان عمر أدلبي، الشاعر والكاتب السوري، إبن حمص، يصوغ بفطرة سورية وببساطة حمصية شعارات الثورة معلنا أن النظام بدأ يلعب على الوتر الطائفي، بعد أن رأى أنه في خمسة أشهر، في أشهر الثورة الأولى، لم يتعرض أي رمز ديني في سوريا للإعتداء. وهذا ما أقلق طبعا النظام السوري الذي يراهن على مقولة: فرّق تسد! فرّق النظام الثوار لكنه لم يسد. فالثورة لن تنتهي، في رأي أدلبي، إلا بانتهاء النظام. منذ اللحظات الأولى تأكدنا، تأكد كل الثوار، أن بشار سيستخدم كل طرق الموت ليقضي على الثورة فراح يصطاد قادة التجمعات قنصا في رؤوسهم! القنص أسلوب النظام. ويوم أدرك أن القنص الفردي ما عاد مجديا لجأ الى وسائل القتل الجماعي واستخدم السلاح الكيميائي، ورمى براميل الموت. النظام مجرم ولا يقيم أي وزن للتاريخ ولا للمواثيق ولا حدود لغبائه. اقتحم حلب. اقتحم حماه. اقتحم حمص. قتل واغتصب وشرّد وما زال يضحك!

«حزب الله» في «عوسجة» كلما زاد حراكه زادت جراحه!

ما رأي حارث سليمان، عضو اللجنة التنفيذية في «حركة التجدد الديمقراطي»، حول التصوّر المقبل للأزمة؟

هناك مظهران للموضوع السوري يتحدث عنهما سليمان: الأول، المظهر الداخلي، أي توازن القوى بين السوريين وقد حُسم لمصلحة المعارضة. وهناك المظهر الخارجي الذي تتداخل فيه وتتشابك المصالح والرؤى الخارجية، وليس سرا القول إن الأزمة ما عادت داخلية بل فتحت على المحيط الإقليمي والتوازنات الدولية. ويتابع: صحيح أن في التوازنات الإقليمية الأرجحية هي للمعارضة غير أن هذا النوع من التأييد لا يعدو كونه سياسيًا أو لنقل تأييدًا لفظيًا لم يترجم واقعا على أي مستوى لا في مجلس الأمن ولا على المستوى الإنساني ولا طبعا على المستوى العسكري من أجل زيادة كفاءة المعارضة، في حين أن الأطراف الإقليمية والدولية الداعمة للنظام كانت حدود دعمها

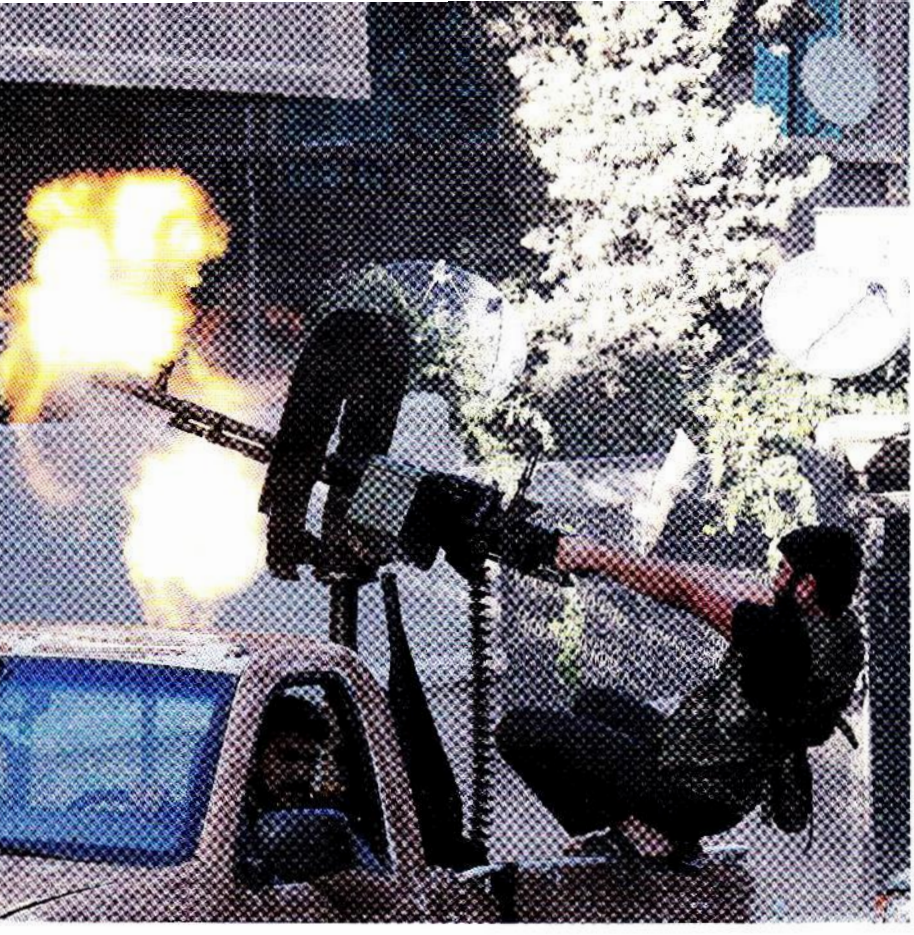

الثورة لن تنتهي

عالية الوتيرة حتى أن روسيا والصين استخدمتا «الفيتو» ثلاث مرات. ثمة دول إذا تُعدّ سدا منيعا الى جانب النظام بينما المعارضة لا تلقى إلا «صف كلام»!

ارتكب النظام السوري في الأعوام الثلاثة الماضية جرائم حرب لكن الراعي الدولي حماه! ثمة تسليح روسي وايراني ودعم من «حزب الله» والميليشيا الشيعية العراقية للنظام السوري تحت عين الشمس، بينما، في الجهة المقابلة، تقف تركيا والأردن متفرجتين. حتى أن بعض المتطوعين الأصوليين السلفيين الذين دخلوا الى سوريا مشكوك بفائدتهم، ولنأخذ مثلا تنظيم «داعش» الذي لم يشارك في أي نقطة اشتباك بين النظام والجيش السوري الحرّ علما أن هناك أكثر من 600 نقطة اشتباك بين الطرفين! وأكثر من هذا فإن تنظيم «داعش» يصوّب أسلحته في اتجاه الجيش الحرّ! وكل هذا أعاق تقدم الثورة السورية.

النظام مجرم ولا يقيم أي وزن للتاريخ والمواثيق ولا حدود لغبائه

كلام حارث سليمان يعيه جيدا الثوار السوريون الذين باتوا يعدون الأخطاء التي وقعوا فيها منذ بداية الثورة ولا ينتهون! وهم، بأسلوب يطغى عليه المزاح، توجهوا الى الثورة الأوكرانية بمجموعة نصائح كي لا يكون مصيرها بعد ثلاث سنوات كمصيرهم اليوم ومما قالوا: أيها الأوكرانيون والأوكرانيات نصيحة أخوية لكم، جربنا بزماننا «جمعة صالح العلي» فضحك علينا العالم فلا تقوموا بـ«أحد لينين»! ولا تصدقوا أبدا كذبة التدخل الخارجي بل قلّعوا أشواككم بأياديكم! وانتبهوا جيدا من البراميل الفارغة، أرموها، وأينما رأيتم برميلا أطمروه تحت سابع أرض. وإياكم إياكم أن تنتظروا ثلاث سنوات بل توجهوا الآن، الآن بالذات، الى الضاحية الروسية الجنوبية و«احرقوا دينها»! ولا تشكلوا مجلسا وطنيا بل شكلوا ائتلافا مباشرة حتى لا تضطروا الى انتظار ثلاث سنوات مجانية. نصيحة أخيرة: مو كل ما جمعتم خمس أوكرانيات ودوشكا تعملوا كتيبة!

نصائح السوريين وإن طغت عليها السخرية فهي تخرج من قلوب جد محروقة!

هل من تفسير منطقي لهذا «الإستهتار» الدولي؟ يجيب سليمان: الواضح أن ما يُقال علنا يختلف عما يُقال في الخفاء! ثمة إزدواجية في الموقف الدولي تجاه الأزمة السورية. حتى أن هناك من يقول أن الأميركيين يتحججون بالروس لكنهم في قرارة أنفسهم يريدون أن يجعلوا من سوريا أرض استنزاف لكل الأصوليات! وهل يقترب رأي حارث سليمان من هذه النظرية؟ يجيب: واثقٌ أن الأميركيين مسرورون لذهاب «حزب الله» وعناصر حكومة المالكي الى سوريا. ثمة موقف مضمر خبيث تجاه الأزمة السورية. وكلنا يعلم أن روسيا هي كناية عن قطر وإسرائيل في الإقتصاد العالمي! ويُقصد بهذا أن روسيا ليست دولة كبرى اقتصاديا وهي، مثل قطر، لا تملك إلا مواد أولية خام ومثل إسرائيل لا تملك إلا السلاح. روسيا بكلام آخر تستورد كل شيء وهذا لا يُترجم قوة في السياسة. وكل الكلام عن عودة الثنائية القطبية بين روسيا وأميركا مجرد كلام وضحك على الذقون!

ألف ومئة يوم على الثورة السورية. كلام كثير سرى. وجنرال الرابية وعد ذات يوم أن تنتهي الثورة لصالح النظام ذات ثلاثاء. مرت أشهر وسنوات والأزمة مستمرة... فهل يفترض بنا استخدام عبارة وليد بك جنبلاط هنا لنسأل: إلام ستنتهي الثورة؟ متى تنتهي؟ هل يملك أحد الجواب؟ وهل صحيح أن سوريا قد تتحول الى كونفيدراليات؟ هل ستنشأ دولة علوية مثلا امتدادها بين سوريا ولبنان؟

النائب العلوي في طرابلس بدر ونوس حاسمٌ في هذا الموضوع: لن تكون هناك دولة علوية. ولو أردنا بناء هكذا دولة علوية مستقلة لفعلنا هذا أيام الفرنسيين. نحن تصدينا لهذه الفكرة في عشرينات القرن الماضي ولن نفعلها طبعا اليوم!

حاسمٌ هو في النفي... فهل هو كذلك أيضا في تحديد نسب العلويين في لبنان وسوريا؟ يجيب: لا يزيد عدد أبناء الطائفة العلوية في لبنان عن مئة ألف، هناك في طرابلس وحدها أكثر من نصفهم بينما ينتشر نحو أربعين ألفا في عكار والبقية تتوزع في بيروت والكورة وفي بعض قرى الغجر. أما في سوريا فنسبة 12 في المئة من مجموع السكان، كحد أقصى من العلويين، وتحل هذه الطائفة الثانيّة عدديا بعد السنة الذين يُشكلون نحو 85 في المئة من مجموع السكان. لكن ليس كل السنة ثوارًا وليس كل العلويين نظامًا.

طمأننا بدر ونوس. لكن هل هناك يا ترى من يطمئننا عن موعد انتهاء الأزمة؟ هل

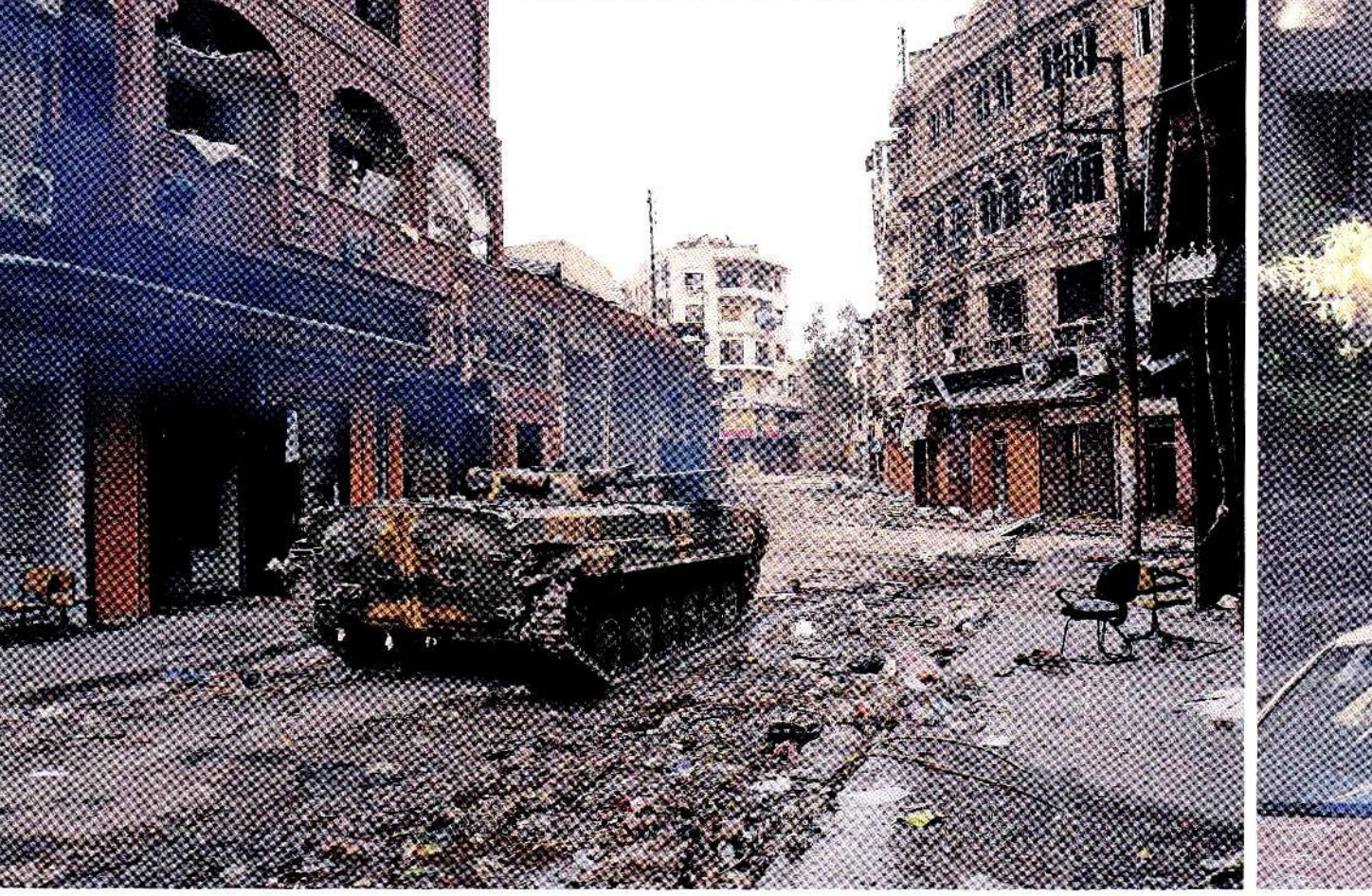

دبابات النظام تجتاح الاحياء السورية

سيرحل بشار؟ هل سيبقى بشار؟

ناصر قنديل الذي عُيّن، في الآول من آذار، رئيس تحرير صحيفة «البناء» التابعة الى «الحزب السوري القومي الاجتماعي» غائب عن السمع! ربما هو في سوريا؟ وثام وهاب في عطلة. مروان فارس صوته مبحوح... ماذا عن عاصم قانصوه؟ هو الآن، الآن بالذات، على السمع... لكن قبل أن يصلنا مدير مكتبه به يعود ويعتذر: معاليه ما عاد على السمع!

ثمة إزدواجية في الموقف الدولي تجاه الأزمة السورية

نعود لنسأل: هل هناك من يستطيع أن يُخبرنا إذا كان الحسم ممكنا قريبا في سوريا؟ حارث سليمان يجيب بتشبيه: تعرفين باب مدخل الآوتيل، الباب الذي يدور على نفسه، الذي تدورين فيه وتدورين وتبقين حيث أنت، هكذا هو مسار الثورة السورية اليوم، ستبقى تدور حول نفسها «بلا طعمة» ما لم يتم حدث كبير أساسي في المنطقة يُبدّل في واحدة من الأوراق الكبرى!

يأخذنا هذا الكلام الى «حزب الله» الذي غاص في الوحول السورية، القادرة على ما يبدو أن تبلع الكثير من الدماء بعد، قبل أن تجد حلا. ونتذكر هنا تشبيها أدلى به ثائر سوري: تليق بـ«حزب الله» الآن أغنية عبد الحليم حافظ: اللي شبكنا يخلصنا!

حارث سليمان يوافق على هذا التشبيه ويشرح: غرق الحزب في الوحول السورية ونتائج ما فعل كارثية ليس على إسرائيل ولا طبعا على الغرب ولا حتى على ايران بل على لبنان واللبنانيين. «حزب الله» بات يُشبه من سقط في «عوسجة» وكلما زاد حراكه زادت جراحه. «حزب الله» ينزف وسينزف كثيرا بعد. وكل هذا في ظل عدم وجود دولة حقيقية في لبنان تقول: الأمر لي. الأمر، غصبا عن الجميع، لي!

في كل حال، الجواب عن سؤال: من هُزم ومن انتصر؟ ليس صعبا كثيرا... فبشار الأسد، نعود لنكرر، انتهى والعالم يبحث عن البدائل. وكل طرف يبحث عن مصلحته في هذه البدائل. وفي هكذا زمان قد تحدث في الوقت الضائع أمور كثيرة، خطيرة، ونحن بتنا، بعد ألف ومئة يوم على اندلاع الثورة السورية، في قلبها، في قلب نواتها، ندور مكاننا في الوقت الضائع. ماذا سيصيبنا؟ ماذا سيحصل؟ كان بودنا أن نقول لكم: إحفظوا رؤوسكم لكنه قول فات وما فات مات!

يبقى أن النظام السوري يحاول أن يُعمّم عبر حلفائه في لبنان «سمة التفاؤل» من عيار: متأكدون أن محورنا هو من سيربح في النهاية وأسألينا لماذا؟ لماذا؟ لأن مشكلة الأميركي والاسرائيلي أنهما تحت تأثير العولمة التي أفقدتهما القدرة على بذل الدماء بينما نحن مستعدون لذلك! نعتقد أن المنتصر في هذه الحرب سيكون من هو الأكثر قدرة على بذل الدماء.

تليق بـ «حزب الله» أغنية عبد الحليم حافظ: اللي شبكنا يخلصنا!

هل علينا أن نسأل بعد: وماذا يفعل «حزب الله» بنا؟ إنه يستسهل «بذل دماء اللبنانيين» إكراما لانتصار موهوم! ليس «حزب الله» وحده يدور في فلك ذاك الانتصار. فالنظام والمعارضة يعرفان ذلك. كأن ما يحصل في سوريا اليوم ليس بحثاً عن انتصار كامل ولا تجنبًا لهزيمة كاملة. كأنه محاولة لرسم حدود السيطرة الداخلية. فاللعبة لا تزال محصورة ضمن هذه الحدود.